

جمالیات الدعاء فی القرآن الکریم

عاطی عبیات^۱، زینب یوسفی گوهرگان^۲

^۱ استاد دانشگاه فرهنگیان رسول اکرم اهواز

^۲ کارشناسی ارشد زبان و ادبیات عرب

چکیده

فی هذه الدراسة حاولنا ان نبین جانباً من جمال نظم القرآن و روعة إبداعه، فبالرغم من زادنا المتواضع و بضاعة علمنا القليلة سبرنا أغوار اسلوب الدعاء فی آیات القرآن الکریم، فوجدناه فی آیات كثيرة، تعددت سیاقاته، و تباينت أدواته، و تنوعت مجالاته و أنماطه. ففي هذه الدراسة التي اعتمدت فی خطتها علی المنهج الوصفي – التحليلی درسنا جوانب جمالية تتحلی بها آیات الدعاء منها حسن الابتداء و الختام و حسن التنسيق المحفوف بالاطار الموسیقی الرائع و منها اسلوب النداء و الايجاز محاولین تبیین مدى القدرة علی توظيف هذه المبانی لتجلیة المعانی و مدى تعانق صور الكلام مع المعانی و المضامین و الاغراض. و تجيب هذه الدراسة علی الأسئلة التالية: ما هی آداب الدعاء و أركانه و شروطه فی القرآن الکریم؟ كيف يريد منا القرآن الکریم أن ندعو الله تعالى؟ ما مدى تأثير الجوانب البلاغیة و الجمالیة للدعاء علی نفسیة المؤمن و ترسیخ المعنی؟

واژه های کلیدی: القرآن الکریم، الدعاء، البلاغة، الايقاع، التناسق، الايجاز.

مقدمه

الدعاء فى اللغة « طلب الطالب للفعل من غيره » (ابن سيده، ۱۳۱۶: ۸۸) وقال الراغب الاصفهاني: «و يستعمل استعمال التسمية نحو: دعوت ابني زيدا أى سميته، ودعوته اذا سألته واذا استغثته» (الاصفهانى ، ۱۴۱۸ : ۱۷۶). أمّا فى الاصطلاح فقد عُرف بأنّه «الابتهال الى الله تعالى بالسؤال و الرغبة عنده من الخير، و التضرّع اليه فى تحقيق المطلوب و إدراك المأمول»، أو هو «استدعاء العبد ربّه العنايّه، و استمداده إياه المعونه» (ناصيف، ۱۴۱۵: ۷).

وقد وردت مادة «دع و» مع مشتقاتها فى القرآن الكريم اكثر من ۸۰ مرة تدل على معان متعدده، منها:

- ۱- العبادة، نحو «ادعوا ربكم تضرعاً» الاعراف/۵۵.
- ۲- الطلب و السؤال، نحو: «و اذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام فادع لنا ربك» البقرة/ ۶۱.
- ۳- والاستغاثة والاستعانة، نحو: «و ادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين» البقرة/ ۲۱.
- ۴- النداء، نحو: «يوم يدعوكم فتستجيبيون بحمده» الاسراء/ ۵۲.
- ۵- الحثّ على الشئ والحضّ عليه، نحو: «والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم» يونس/ ۲۵ وقوله «قال ربّ السجن احبّ اليه ممّا يدعونى اليه» يوسف/ ۳۳.

الدعاء علاقة روحية و مثالية بين المخلوق و الخالق، فهو مخ العبادة و الصلة الموصولة بين العبد و ربه، و من هذه الناحية صار ركناً اساسياً فى عبادتنا العلمية و النظرية معاً و من الطبيعى ان الدعاء ليس كلمات تلفظ فحسب و انما النية وحدها نوع من الدعاء ايضاً و لكنه اذا ظهر فى ثوب الالفاظ اكتسب رونقه و مظهره الخارجى الذى يتجاوز خصوصية المكان و الزمان (كريمى فرد، ۲۰۰۵: ۷۴)

فالدعاء ترنيمه المؤمن و طعامه الروحى و غذاؤه الوجدانى و هو الفريضة الممزوجة بكل ألوان الطاعات و العبادات فالصلاة من بعد التوحيد مفروضة و بدايتها قراءة ام الكتاب الفاتحة بآياتها السبع قوامها الدعاء، تبتدأ بالدعاء و تنتهى بالدعاء (على رضا، ۱۴۰۴: ۱۷۳). و الدعاء قد يستره الله لنا و دليل التيسير ما جاء فى القرآن من تعريف للدعاء و أركانه و شروط و امكان طلبه و الأسماء و الألفاظ التى ندعو بها. مضامين الدعاء القرآنى غنية بأداب الحديث مع الله، كيف نحمده و نشنى عليه، و نستغفره بالانابة الى جنبه، ثم كيف نبدأ بطلب افضل الحاجات، دون ان ننسى الشؤون الثانوية، و كيف نتذكر الوالدين و الاقربين و الأخوة المؤمنين عند الدعاء و عشرات من الآداب الأخرى (المدرسى، ۱۴۰۵: ۴).

إنّ الدعاء الجامع الشامل أنّما هو القرآن. و القرآن هو الصورة المثلى للدعاء، فمن رجاحة العقل أن نتوسل الى الله بكلمات الله و قرآنه و كتابه. فالآيات الكريمة بالرغم من أنّها متناثرة فى مناسبات مختلفة فى القرآن إلا أنّها تعطينا فى المجموع فكرة متكاملة عن الدعاء.

المصنفون المسلمون الأوائل درسوا خصائص العلوم و سموها بأسمائها و صنفوها و ميزوها علماً، و أدبا، بحكمة و دقة كما رأيناهم فى دراساتهم القرآنية، و النحوية، و البلاغية، و الأدبية، إلا أنّهم مع تحريهم أهملوا فنّاً أدبياً رائعاً هو الدعاء الذى تميّز فى الخطاب و المحتوى، و اكتملت فيه البنية، و تبعهم فى ذلك الأمر المحذون من علماء اللغة فلم يلتفتوا إليه و صفاً و دراسةً، و لعل سبب ذلك البعد الدينى التعبدى للدعاء.

خلفية البحث:

غالب الدراسات التى أجريت فى هذا الصدد كانت دينية لا تتعدى إلى البحث فى عوالم اللغة و أسرارها إلا على استحياء، كما رأينا ذلك فى رسالة كتبها عبدالرحمن جيلان بن خضر العروسى و سماها «الدعاء و منزلته من العقيدة الإسلامية» و تقدّم بها إلى شعبه العقيدة بالجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة، و هى بحث فى العقيدة، و كتاب الدكتور محمود الشريف «الدعاء فى القرآن الكريم» و هو كتاب خواطر اكثر من أى شئ آخر.

علماء الشريعة هم أكثر من اهتمّ بالدعاء و كتبوا عن أحكامه و آدابه فى كتب جمّة و تأليف مفردة ككتاب «الدعاء» لأبى عبدالرحمن الضبى، و «الدعاء» لأبى القاسم الطبرانى، و «شأن الدعاء» لأبى سليمان الخطابى، و «الدعوات» للبيهقى، و «أروع

ماقیل فی الأدعیة» لإمیل ناصیف، و «الدعاء معراج الروح و منهاج الحیاة» لمحمد تقی المدرسی و «الدعاء و الاجابة» لفؤاد علی رضا و «الدعاء المستجاب» لعبدالکریم الخطیب. و هذه کلها کتب اهتمت بالدعاء من منظور علم الروایة و الدراية، و علم العقيدة، و لم یکن للبحث اللغوی و البلاغی نصیب من مدادها الذی کتبت به. هذا ما دفعنا الی دراسة الدعاء علناً بذلك أن نساهم فی استکشاف جمالیات الدعاء فی آی القرآن الکریم.

صیغ الدعاء:

صیغ الدعاء فی القرآن الکریم ثلاثة: ۱- دعا الفرد لنفسه ۲- دعاء الفرد لغيره ۳- دعاء الجميع للجميع. و فیما یلی نستعرض هذه الطوائف الثلاثة من الدعاء، لتعرف علی أسالیب القرآن فی الدعاء للمؤمنین.

۱- دعاء الفرد لنفسه:

و هو أسلوب معروف من الدعاء، و نجد فی القرآن نماذج من هذا الدعاء علی لسان الانبیاء و الصالحین، أو من تعلیم الله تعالی لعباده و من ذلك قوله تعالی:

- «رب لاتذرنی فرداً و انت خیر الوارثین». الانبیاء / ۸۹

- «رب أزلنی منزلاً مبارکاً و انت خیر المنزلین». المؤمنون / ۲۹

- «رب أعوذ بک من همزات الشیاطین و أعوذ بک رب أن یحضرون». المؤمنون / ۹۷

۲- دعاء الفرد لغيره:

و هو نحو آخر من الدعاء له نماذج و شواهد فی القرآن و من ذلك قوله:

- «و قل رب ارحمهما کما ربانی صغیراً». الأسراء / ۲۴

- و منه دعاء حملة العرش للمؤمنین: «ربنا وسعت کل شیء رحمة و علماً فأغفر للذین تابعوا و اتبعوا سبیلک وفقهم عذاب الجحیم. ربنا و أدخلهم جنات عدن الی وعدتهم و من صلح من آبائهم و أزواجهم و ذریاتهم و انک انت العزیز الحکیم. وفقهم السیئات و من تق السیئات یومئذ فقد رحمته و ذلك هو الفوز العظیم» غافر / ۹- ۷

۳- دعاء الجميع للجميع:

أشهر أسالیب الدعاء فی القرآن من هذا القبیل و من ذلك قوله تعالی:

- «اهدنا الصراط المستقیم. صراط الذین أنعمت علیهم غیر المغضوب علیهم ولا الضالین». الفاتحة / ۶ و ۷

- «ربنا تقبل منا إنک انت السميع العلیم». القره / ۱۲۷

- «ربنا أفرغ علینا صبراً و توقنا مسلمین». الأعراف / ۱۲۶

- «ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها کان غراماً». الفرقان / ۶۵

حسن الإبتداء و حسن الختام:

إذا التفت الی فاتحة الكتاب و خاتمة بدا لک من أسرار التنزیل عجیب، فإن الله سبحانه افتتح کتابه الکریم بالدعاء فی «سورة الفاتحة»، واختتم - سبحانه - کتابه العظیم بالدعاء فی «سورتی المعوذتین». سورة الفاتحة بأياتها دفقة من دعاء محض و ابتهاج خالص الی الله سبحانه، تبدأ بدعاء و تنتهی بدعاء. و کما كانت خاتمة الكتاب دعاء و استعاذة بالله من شر النفس و الدنس و من شر الوسواس الخناس، كانت الفاتحة دعاء بدیء بحمدالله رب العالمین الرحمن الرحیم، مالک الملك و الملكوت، المتفرد بالعبودية، المستعان، الهادی، المنعم، ثم كانت بعد ذلك سؤالاً و تضرعاً من المؤمنین لله حتی یمنحهم الهدایة و الرشده و السداد و التوفیق.

الفاتحة دعاء بدیء بعد البسملة بحمدالله و حمدالله دعاء فی طمأنينة نفسیه تُعفی علی ما ترسب فی الأعماق من اهتزاز عواطف أو جموح أحاسیس، و تدفع الی الصفاء الداخلي و الراحة الوجدانية و الهدوء القلبي (ابن الشریف، ۱۹۸۷: ۱۲).

و المنهج الدعائي تخططه لنا سورة الفاتحة، فهو يبدأ بذكر و يصدر بتوسل، توسل الى الله بأسمائه و صفاته ثم يأتي عقيب ذلك السؤال و الطلب «اهدنا الصراط المستقيم». و هذا هو أول طلب و دعاء في القرآن الكريم علمنا الله تعالى اياه لأن حاجتنا اليه أشد من حاجتنا الى كل شيء سواه (المصدر السابق: ۴۰). ولا يخفى على البليغ جمال الالتفات في هذه السورة فقد جرى الأسلوب في مطلع السورة على طريقة الغيبة «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين» فكان مقتضى الظاهر أن يقال «يا ه نعبد و اياه نستعين» لكن اقتضى مقام الدعاء العدول أو الالتفات من الغيبة الى الخطاب فقال: «ياك نعبد و اياك نستعين»، وفي هذا الالتفات ما فيه من تعظيم شأن المعبود جلّ و علا. فالكلام من أول السورة الى هنا ثناء و الثناء في الغيبة أولى. و يقول ابن القيم: «ان الدعاء الذي يتقدمه الذكر و الثناء أفضل و أقرب الى الاجابة من الدعاء المجرد...» (عطيف، ۱۴۲۴: ۷۱۸).

مفاهيم و قواعد، كليات و اصول، تواريخ و أحداث، صور و مشاهد كل ذلك تضمنته فاتحة الكتاب، فكانت دفقة من دعاء و شحنة من ابتهاج يكمن فيها قوى عدة يتزود بها الداعي و يتسلح بها الذاكر يشحن بها طاقته و يشحذ بها ايمانه و يدجج بها معرفته و يقينه.

فحسن الابتداء أمر مهم مؤثر جداً في كل حديث نثرأ كان و شعراً ذلك لأنه مطلع الحديث و أول ما يصل الى أذن السامع و اذا لم يكن مرغوباً و لطيفاً و واضحاً و قريباً للقلب و مناسباً للمقام و مقتضى الحال فهو يبعث السامع أو القارى على النفور و الاشمزاز و يصرفه عن سماع أو قراءة باقي الحديث.

هذا فضلاً عن «حسن الختام» الذي نشاهده في آخر سوره من القرآن الكريم - سورة الناس - التي جاءت بشكل ملائم جذاب و بليغ في التأنق و النظام أعلى مستوى يمكن ان يصل اليه حديث و لاسيما اذا لاحظنا أن الجزء الأخير من الكلام يبقى في أذن السامع اكثر مما يبقى الاجزاء الأخرى.

بدأت هذه السورة بفعل أمر «قل» حتى تلزم الانسان بترنيم هذه الآيات التي تقيه من شر الوسواس الخناس و لأجل تعلق هذه السورة بالأذهان و تأخذ موقعها من القلب جاءت الفاصلة مكررة - الناس - الآ في الآية الرابعة التي جاءت فاصلتها «الخناس». و هذا يجعل السورة اكثر ايقاعاً و أشد وقعاً على القلوب كما أن تكرار حرف السين يساعد على ايقاع الآيات بصورة ملفتة للنظر. هذا بالنسبة للكتاب - القرآن الكريم - بما فيه من سور و آيات، لكننا اذا أمعنا النظر في آيات القرآن الكريم التي تتضمن الدعاء سنجد «حسن الابتداء» و «حسن الختام» في كل آية بصورة جليّة تقتضيها آداب الدعاء، فمثلاً هذه الآية: «ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق و انت خير الفاتحين» الأعراف / ۸۹. فالعبارة الأخيرة «و انت خير الفاتحين» تنسجم تماماً مع ما جاء في بداية الآية، كما نرى في هذه الآية ضرباً من ضروب البديع يقال له «رد العجز على الصدر». و اذا دققنا في الآيتين التاليتين: «ربنا اغفر لنا و لاخواننا الذين سبقونا بالايمان و لاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم» الحشر / ۱۰. و «ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا و اغفر لنا، ربنا انك انت العزيز الحكيم» الممتحنة / ۵. تتبين لنا العلاقة الوطيدة بين الخاتمة «انك رؤف رحيم» و «ربنا انك انت العزيز الحكيم» و بين البداية في الآيتين، حيث الآية الأولى تتكلم عن الرحمة و الغفران و الآية الثانية تتكلم عن الفتنة التي لامرأ لها الآ قدرة الله المصحوبة بحكمته.

حسن التنسيق:

لقد وردت عدة آيات متتابعة في القرآن تنص على الدعاء ففي جميع هذه الآيات جاءت الكلمات و العبارة يتلو بعضها بعضاً، في انتظام و نسق متين جميل و بانسجام سليم و حسن دون أن يردّ فيها اصطلاح ناشز معيب لا ينسجم مع المقصود و المضمون. فقد ورد في سورة طه على لسان موسى: «رب اشرح لي صدري، و يسر لي أمري، و احلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي و اجعل لي وزيراً من اهلي هارون أخي» طه / ۳۰ - ۲۵. كما يتبين لنا فالجمل متناسبة في تركيبها و تتابعها و عطف بعضها على بعض فكان العبارة السابقة مختصر و مجال للعبارة اللاحقة، و العبارة اللاحقة توضيح و كمال للعبارة السابقة.

و كيف بنا لو تصوّرنا جماعة من الصديقيين الصالحين يشتركون ذكوراً و اناثاً، شيباً و شباناً، بأصوات رخيّة متناسقة، تصعد معاً، و تهبط معاً و هي تتوسل الى الله منشدة هذا النشيد الفخم الجليل: «ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار، ربنا إنك

مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُحْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ» آل عمران / ۱۹۴ - ۱۹۱.

فالربط و العلاقة بين العبارات محكم و منسجم إحصائياً و معنوياً عميقاً بحيث نلاحظ بوضوح أنّ كلّ عبارة تستوجب عبارتها التالية بصورة عفوية و طبيعية.

فالدعاء في هذه الآيات كالماء الجاري الذي يسيل في مجرى لين مسترسل بألفاظ بديعية جميلة مفعمة بالمعاني، و تراكيب صحيحة فصيحة.

و نجد حسن التنسيق متجسداً في الآيات التالية: «رَبَّنَا لا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ» آل عمران / ۸ و ۹ .

أَتَمُّهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ وَ يَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ أَلَّا يَزِيعَ قُلُوبَهُمْ كَأُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ» آل عمران / ۷. فكما نرى تعبير «رَبَّنَا لا تَزِغْ قُلُوبَنَا» هو تعبير في غاية الإيجاز إذ لا داعي لذكر التفاصيل المشار إليها في الآية السابقة، فلا داعي أن يقول مثلاً: ربنا لا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله. و تعبير «وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» فيه تطلع إلى كرم الله السابغ أن يهب لهم هذه الرحمة و أن تكون واسعة شاملة تتناسب مع كرم المنعم الوهاب. «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ...» انهم يعلنون إيمانهم بالراسخ بهذا اليوم الذي يجمع فيه الناس، و كأنما يقدمون هذه الإقرار مؤهلاً لطلب رحمة الله بهم في ذلك اليوم، و الانعام عليهم بنعيم الجنة التي وعدهم بها «إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ» (محمد قطب، ۱۴۰۳: ۳۱۳).

كما نلاحظ في هذه الآيات جاءت العبارات على نسق واحد و كل عبارة تسعى لإكمال معنى العبارات الأخرى و أخرجها بأحسن صورة بحيث ارتسمت من التمام هذه العبارات صورة منسقة لا تستغني عن أي عبارة من هذه العبارات.

الايقاع الصوتي و التناسق الفني:

إن هذا القرآن العظيم يمتاز بأسلوب ايقاعي جميل، غني بالموسيقى، مملوء نغماً و سحراً، ففي كلّ سورة منه و آية، و في كل مقطع منه و فقرة، و في كلّ مَسَدٍ منه و قصة، و في كل مطلع منه و ختام نجد هذه الخصيصة البارزة الواضحة.

و لعنا لانتجاوز الحقيقة إن زدنا سحر القرآن إلى نسقه الذي يجمع بين مزايا النثر و الشعر جميعاً (العمري، ۱۹۸۲: ۸۳) فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة و التفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، و أخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلة، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تُغني عن التفاعيل، و التقفية التي تُغني عن القوافي، و ضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرناها فسبق النثر و النظم جميعاً.

إنّ هذا الايقاع الصوتي، لينعبث في القرآن المجيد حتى من اللفظة المفردة، في كل آية من آياته، فتكاد تستقلّ بجرسها و موسيقاها. على هذا الأساس يحق لنا الآن أن ننتخب من سور قرآنية متنوعة بعض مواقف الدعاء. و نحن نعرف أن الدعاء بطبيعته نَمَطٌ من النشيد الصاعد إلى السماء، و لا يحلو وقعه في نفس المتضرع المبتهل إلا أن تكون الفاظه منتقاة و ايقاعه منتظم. القرآن الكريم لم ينطق على لسان النبيين و الصديقين و الصالحين إلا بأحلى الدعاء نَعْمًا و أروع ايقاعاً، و سحر بيان فإذا عرفنا أن ابتهاج الصالحين كما جاء في الكتاب المبين، أكثره رغباً أو رهباً، طمعاً أو خوفاً، استعجالاً لخير أو دفعاً لشر، أدركنا سرّاً من أسرار الإيقاع و التغميم ينبعث من كل مقطع من مقاطع الذكر الحكيم.

فلتنتصروا معاً - و نحن نُرتِّلُ معاً دعاء زكرياء - شيخاً جليلاً مهيباً على كل لفظه ينطق بها مسحة من رهبة، و شعاع من نور ... و لنتمثل معاً - هذا الشيخ الجليل على و قاره - متأجج العاطفة، متهدج الصوت، طويل النفس، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب في أعماق قلوبنا شديدة التأثير: «رَبِّ آتِنَا وَهْنِ الْعِظْمِ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَ لَمْ أَكُنْ بِدَعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَ آتَى خَفْتُ الْمَوَالِي مِنْ ورائي وَ كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرْتُدُّهُ وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» (مريم / ۶- ۴)

إنّ البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التي ينتهي إليها «الايقاع» في فاصلة كل آية بـ «ياؤها المشددة» و تنوينها المحول عند الوقف «ألفاً لينة» كأنها ألف الاطلاق في الشعر، فهذه الألف اللينة الرخية المنسابة تناسقت بها «شقيياً - ولياً - رضياً» مع عبدالله - زكريا - ينادى ربّه نداءً خفياً (العمري، ۱۹۸۲: ۸۸).

فلنستمع الى هدير نوح - عليه السلام - بعد أن دأب ليلاً و نهراً على دعوة قومه الى الحق، و هم يلجّون في عنادهم و كفرهم، و يفرون من الهدى فراراً، و لايزدادون إلا ضلالاً و استكباراً، فما كان من نوح - وقد يئس من صلاحهم - إلا أن يتملكه الغيظ، و يمتلى قوّه بكلمات الدعاء الهادرة الغضبي، تنطلق في الوجود مجللة مدوية، بهديرها الرهيب، و ايقاعها العنيف و ما أظننا نتخيل الجبال إلا مدكوكة و السماء إلا متجهمة عابسة، و الأرض إلا مهتزة مُزلزلة، و البحار إلا هائجة نائرة حين وقف نوح داعياً على قومه بالهلاك التبار: «رب لا تذّر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك و لا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً، رب اغفر لي ولوالديّ و لمن دخل بيتي مؤمناً و للمؤمنين و المؤمنات و لا تزد الظالمين إلا تباراً» نوح / ۲۸ - ۲۶.

ان الايقاع الصوتي و التناسق الفني في القرآن آية عظمى من آيات الرحمن، فليس الايقاع فيه كقافية من الشعر يُقاس بالتفعيلات و الأوزان، و يضبط بالحركات و السكّنات، و لا النظم فيه يعتمد على الحشو و التطويل، أو الزيادة و التكرير، أو الحذف و النقصان، و لا الألفاظ تُحشد حشداً، و تلصق لإصافاً، و يلتبس فيها الإبهام و الإغراب، بل الايقاع طليق من كل قيد، و النظم بنجوة من كل صنعة. و الألفاظ بمعزلٍ عن كل تعقيد و هذا هو سر الإعجاز (المصدر السابق: ۸۹).

اسلوب النداء:

من أهمّ الأساليب التي تُستخدم في آيات الدعاء هو اسلوب النداء (شراء، ۱۳۸۵: ۱۱۸). و النداء هو طلب المتكلم إقبال المخاطب و إن شئت فقل: هو طلب إقبال المدعوّ بحرف نائب مناب «أدعو» سواء كان ذلك الحرف ملفوظاً، نحو: «يا داود أنا جعلناك خليفة في الأرض» ص / ۲۶، أو مقدراً، نحو: «ربّ هب لي من الصالحين» الصافات / ۱۰۰.

إذا كان النداء و الطلب من الأدنى الى الأعلى، و من الصغير الى الكبير، و من الضعيف الى القوي، و من المخلوق الى الخالق، يقال له «دعاء»، فلو قال امرؤ: «ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا و كفر عنا سيئاتنا و توّفنا مع الأبرار»، آل عمران / ۱۹۳، فإنه لا يأمر ربّه أن يغفر له، و يكفر عنه سيئاته، و يتوفاه مع الأبرار، و ليس من المعقول أن يكون هذا طلباً على وجه الاستعلاء و الإلزام، و لكنه طلب فيه ضراعة و خوف، و فيه تذللّ و استعطاف، و فيه انقلب معنى الأمر الى معنى الدعاء (ديباجي، ۱۳۷۶: ۱۴۲).

للنداء ادوات مختلفة أشهرها، حرف «يا» الذي يُستخدم لكلّ منادٍ قريباً كان أو بعيداً أو متوسطاً، و احياناً يصاغ النداء بغير أداة، على الأخص إذا كان المنادى هو الله - سبحانه و تعالى - يقول الدكتور محمد بدرى عبدالجليل في هذا المجال، إذا أراد الله أن ينادى الانسان أو الاشياء، يستخدم ادوات النداء، مثلاً: «يا أيها الناس أعبدوا ربكم» بقره / ۲۱، و «يا ارض ابلعي ماءك» هود / ۴۴. لكننا اذا أردنا ان ننادى الله فلايجدر بنا ان نستخدم حرف النداء، إذ لانجد في القرآن آية واحدة استخدم البشر فيها أداة النداء بصراحة في خطاب الله، بل جاءت الأداة في مثل هذه الحالة بصورة مقدّرة (عبدالجليل، ۱۹۷۵: ۲۳)؛ مثلاً ابراهيم - عليه السلام - يخاطب ربّه بهذه الصورة التالية: «رب اجعل هذا بلداً آمناً» بقره / ۱۲۶.

من الملاحظ البلاغية العامة في آيات الدعاء ايثار لفظ الجلالة في دعاء العبادة و الشناء، و ايثار لفظ «الرب» في دعاء الطلب و المسألة؛ لأن العبادة متعلقة بالألوهية، و اجابة الدعاء من مقتضى الربوبية. فقد استهلّ موسى - عليه السلام - دعاءه بنداء الرب «قال رب اشرح لي صدري» بحذف حرف النداء الدال على شعوره بقربه من ربه؛ وحذف ياء المتكلم المضاف اليه من «ربه» للتخفيف، و اختيار لفظ «الرب» هنا لأن اجابة الدعاء من مقتضى الربوبية. (عطيف، ۱۴۲۴: ۷۳۵).

الايجاز:

و لما «لغة الدعاء» تبتعد أصلاً عن الاطناب فإننا نرى آيات الدعاء جاءت موجزة و قصيرة و يتلو بعضها بعضاً أو يعلو و يتجاوز بعضها البعض الآخر. فهذه الآيات قد ابتعدت عن الاسهاب و الإطالة حتى تبلغ بالحاجات الى عتبة الله في أقصر مدّة من الوقت إلا

عندما يكون المقصود هو التأكيد أو غير ذلك من المقاصد المعنوية الأخرى كالشعور و اللذة من الجلوس مجلس المتحدث مع المعبود الأسمى و الربّ الأحد الذي لا كفاء و لانظير له. فمثلاً في هذه الآية: «ربّنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا و اغفرلنا، ربنا انك انت العزيز الحكيم» نشاهد تكرار «ربنا»، و الايتان بضمير «انت» المنفصل تأكيداً لضمير الكاف المتصل. و كل هذا تعمداً في اطالة الكلام للتلذذ بالحديث مع الحق تعالى واستدراراً لشفقته ورحمته و عطف المعبود. أمّا من ضروب الايجاز في آيات الدعاء هو عدم التصريح بالحاجة و التعبير عنها بلغة غير مباشرة، فمثلاً النبي موسى يدعو ربّه اذ يقول: «ربّ آتني لما أنزلت اليّ من خير فقير» القصص/۲۴. فلم يطلب الخير من الله بأسلوب صريح، بل أنّه يقول: الهى انزلت عليّ خيراً كثيراً و اشكرک على ذلك، لكننى الآن اصبحت فقيراً الى ذلك الخير، فهو يطلب الخير من الله بلغة غير مباشرة. و يقول ربنا عن ايوب: «وايوب اذ نادى ربّه آتني مستنى الضرّ وانت ارحم الرحمين» الانبياء/ ۸۳. و من هذه الآية نستوحى اسلوب الدعاء، فطريقة ايوب في الدعاء تستدعى ان يكون الانسان مؤدباً في دعائه لله، اذ نرى ان ايوب لم يطلب من الله شيئاً بصراحة، و أمّا نادى ربّه آتني مستنى الضرّ، فكيف تترك عبدك هكذا» و انت ارحم الرحمين»، فيطلب ايوب رحمة ربّه بكناية هي ابلغ من التصريح. و المتذوق لبلاغه النصّ القرآني يروقه الايجاز بالحذف في قوله «ربّنا ما خلقت هذا باطلاً» أى يقولون ذلك بمعنى يتفكرون قائلين. و في هذا الحذف ايجاز بأن تفكير أولى الالباب «قد أسلمهم مباشرة الى التصديق بأن هذا الخلق لم يكن باطلاً، و أمّا حكمة اقحام هذا الفعل المحذوف يقلل من ايجاز هذه السرعة في ادراك الحقيقة والاعتراف بها» (حجاب ، بلا تا ، ۶۰).

النتيجة:

تضمّنت آيات الدعاء في القرآن الكريم معاني سامية و مطالب عالية تجمع بين خيري الدنيا و الآخرة. هذه الآيات الكريمة بالرغم من أنّها متناثرة في مناسبات مختلفة في القرآن آلاً أنّها تعطينا في المجموع فكرة متكاملة عن الدعاء فمضامين الدعاء القرآني غنية بأداب الحديث مع الله و ان الدعاء الجامع الشامل أمّا هو القرآن فيبتدأ بدعاء-سورة الحمد- وينتهي بدعاء-سورة الناس. لقد جاءت آيات الدعاء في اسلوب بلاغي معجز، يتسم بالوضوح والقوة و الجمال؛ وهي تمثّل السمات العامة لأسلوب القرآن الكريم. فمن أبرز المظاهر البلاغية التي تحقق تلك السمات في اسلوب الدعاء هي الدقّة في اختيار الالفاظ و حسن الابتداء والانتهاة والايقاع الصوتي والتناسق الفنى و اساليب الخروج عن الاصل كالتقديم والتأخير، و الايجاز و الحذف و الالتفات.

منابع

- ۱- القرآن الكريم
- ۲- ابن سيده، ابو الحسن على بن اسماعيل (۱۳۱۶هـ): المخصّص، المجلد ۳، القاهرة، المطبعة الاميرية.
- ۳- ابن شريف، محمود (۱۹۸۷م): الدعاء في القرآن، ط ۵، بيروت، دار و مكتبة الهلال.
- ۴- الأصفهاني، الراغب (۱۴۱۸م): المفردات في غريب القرآن، ط ۱، بيروت، دار المعرفة.
- ۵- ديباجي، سيدابراهيم (۱۳۷۶هـ): بداية البلاغة، تهران، انتشارات سمت.
- ۶- شرّاد، شلتاغ عبود (۱۳۸۵م): تأثير قرآن بر شعر عربي معاصر، ترجمه مهدي خرّمى، ج ۱، سبزوار، اميد مهر.
- ۷- عبدالجليل، محمد بدوى (۱۹۷۵م): المجاز و اثره في الدرس اللغوي، ط ۱، الاسكندرية، دارالجماعة المصرية.

۸- عطیف، یحیی بن محمد (۱۴۲۴هـ): «من بلاغۃ بعض الادعیۃ فی القرآن الکریم»، السعودیۃ، مجلۃ جامعۃ ام القرى للعلوم الشرعیۃ واللغۃ العربیۃ و آدابها، عدد ۲۶ (۱۵).

۹- علی رضا، فؤاد (۱۴۰۴هـ): من علوم القرآن، ط ۳، بیروت، دارالقرآن.

۱۰- العمری، احمد جمال (۱۹۸۲م): دراسات فی القرآن و السنۃ، ط ۱، القاهر، دارالمعارف.

۱۱- کریمی فرد، غلامرضا (۲۰۰۵م): «الجمالیۃ فی الصحفیۃ السجادیۃ»، تهران، مجلۃ العلوم الانسانیۃ، العدد ۱۲ (۴).

۱۲- قطب، محمد (۱۴۰۳هـ): دراسات قرآنیۃ، ط ۴، بیروت، دارالمشرق.

۱۳- المدرسی، محمد تقی (۱۴۰۵هـ): الدعاء معراج الروح و منهج الحیای، ط ۱، المركز الثقافی الاسلامی.

۱۴- ناصیف، إمیل (۱۴۱۵هـ): أروع ما قیل من الأدعیۃ، ط ۱، بیروت، دارالجیل.